بين مصطلح التصوّف والطريقة الصوفية

الدكتورة: عبّو لطيفة
جامعة تلمسان

في هذه المرحلة من تاريخنا الإسلامي المعاصر التي يمكن أن توصف بأنها مرحلة حرجة من حياة الأمّة، نجد أنفسنا ملزمين بأن نوضّح معالم الطريق الّذي يقود إلى حالة التوازن في الأمة لتنال عزتها في الدنيا وكرامتها في الآخرة ونجد أنفسنا ملزمين بذكر مكامن القوّة الروحية في ديننا الإسلامي العظيم، والتي بإمكانها أن تدفع المسلمين إلى أعلى مراقي الرفعة والرقي.

فالجيل المعاصر المنبهر بحضارة الآخر وتقدمه، المنغمس في الموجة المادية التي صارت مسيطرة على أغلب نواحي الحياة، ينبغي عليه أن يفهم ويفقه في جوهر الرسالة المحمدية التي هي قادرة على الربط المتوازن بين الجانب الروحي لدينه والجانب الحضاري الّذي يعاصره، وعليه سنتناول بالدراسة والتحليل بين مصطلح التصوّف ومصطلح الطريقة الصوفية.

يقول الله تعالى: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)[1]، جمع الطريق طرق على حين جمع طريقة طرائق

قال تعالى: (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِـدَدًا)[2]، ويقال أن للعلم الفلاني طريقة صوفية ولذاك طريقة أخرى، فما معنى الطريقة الصوفية؟

مصطلح الطريقة في اللغة والاصطلاح:

الطريقة في اللّغة هي: الأسلوب أو المسلك الّذي يوصل إلى المقصود بسهولة ويسر، وهي عند الشيخ محمد الكسنْزان المنهج أو الأسلوب الّذي يستنبطه شيخ الطريقة من الكتاب والسنة المطهرة لتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا كاملا بظاهرها وجوهرها. أمّا في الاصطلاح الصوفي فمعنى الطريقة أخص من المعنى اللّغوي[3].

السّؤال الّذي يطرح نفسه في هذا المقام: متى ظهرت الطريقة في الإسلام؟ ولماذا ظهرت؟

هناك فرق كبير بين ظهور مصطلح الطريقة كلفظ دال عليها وبين وجود الطريقة كحقيقة شرعية إسلامية رافقت ظهور الإسلام من بدايته الأولى.

لم يشتهر مصطلح الطريقة في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولكن جوهرها وحقيقتها كانت موجودة؛ فعلم الطريقة كان موجودًا

في عصر الرسالة الأوّل[4]، وجوهر العلوم الإسلامية جميعا كان موجودًا في العصر الأول من مجيء محمد رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، ولم تتفرع هذه العلوم إلاّ بعد الحاجة لها في القرن الثاني الهجري كما تذكره كتب ومصادر اللغة.

يقول الحافظ محمد صديق الغماري عن زمن ظهور الطريقة الصوفية: «هو الوحي السماوي من جملة ما أسس من الدين المحمدي وذلك لأنّها، كما يرى مقام الإحسان (هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك)، وهذا المقام وهو ثالث أركان الدّين بعد الإسلام والإيمان التي بيّنها حضرة الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وسلّم في حديث جبريل والّذي قال فيه (هذا جبريل عليه السّلام أتاكم يعلمكم دينكم)»[5].

مؤكّدا على أنّ من أخلّ بهذا المقام (الإحسان) الّذي هو الطّريقة فإنّه لم يبلغ مراتب الكمال لتركه ركن من أركان الدّين فغاية ما تدعو إليه الطّريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد رسوخ الإسلام والإيمان[6].

نلاحظ أن صاحب النّص يعطي بعدا واحدا لمصطلح الطريقة الصوفية لأنّه يعتمد على ركن واحد من أركان الدّين

وهو ركن الإحسان والحقيقة أن مفهوم الطريقة متعلّق بأركان الدّين الثلاثة (الإسلام- الإيمان- والإحسان)، فهي ليست تطبيقا لمقام الإحسان فقط، كما يتصوّر البعض فهي تطبيق لمقام الإسلام أوّلا ثمّ الإيمان، وأخيرا الإحسان إن لا إحسان بلا إسلام وإيمان، ونستنتج مما سبق ذكره أن الطّريقة هي التطبيق الأمثل والأكمل لأركان الدّين الثلاثة بلا فصل أو تجزئة.

مصطلح التصوّف في اللّغة:

1- أنّه من الصوفة لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه لله تعالى.

2- أنّه من الصِّفَة إذ أن التصوّف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصّفات والترك المذموم منها.

3- أنّه من الصُفَّة لأنّ صاحبه تابع لأهل الصُفَّة الّذين هم الرعيل الأول من رجال التصوّف (وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي الشريف ويعظهم رسول الله من الصفات والزكاة طعامهم ولباسهم).

4- أنه من الصفّ فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى وتسابقهم في سائر الطاعات.

5- أنه من الصُّوف لأنّهم كانوا يُؤترون لبس الصوف الخشن للتقشف والإخشيشان.

6- أنه من الصفاء فلفظة الصوفي على وزن عوفي أي عافاه الله فعوفي، قال أبو الفتح البستي[7]:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض منبثقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى سُمّي الصوفي

وقد أرجع بعض الباحثين والمؤرخين المختصّين بعلم الديانات القديمة من غير المتصوفة، الكلمة إلى أصل يوناني هو كلمة: (سوفيا) ومعناها الحكمة، وأول من عرف بهذا الرأي هو البيروني[8]، ووافقه في ذلك الدكتور محمد جميل غازي الّذي قال: «الصوفية كما نعلم اسم يوناني قديم مأخوذ من الحكمة (صوفيا) وليس كما يقولون أنّه مأخوذ من الصوف[9].

التصوّف اصطلاحًا:

قال زكريا الأنصاري: التصوّف علم تعرف به أحوال تزكية النّفوس وتصفية الأخلاق وتحمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية[10].

أما أحمد زروق فيقول: التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل وحفظ النّظام وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول: علم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان، وقال أيضا: وقد حُدّ التصوف ورسم وفسّر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع، كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى وإنما هي وجوه فيه[11].

نشأة مصطلح التصوّف:

يرجع الصوفية أصل التصوّف كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا وإقبال على العبادات والاجتنات المنهيات ومجاهدة للنفس وكثرة ذكر الله إلى عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وعهد الصحابة، وأنّه يستمد أصوله وتعاليمه من الدّين الإسلامي المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهناك من يرى أن أصل التصوّف هو الرهبة البوذية، والكهانة النصرانية والشعوذة الهندية فقالوا: هناك تصوّف بوذي وهندي ونصراني وفارسي لكن الصوفية المسلمون يرفضون تلك النسبة ويقولون بأن التصوّف ماهو إلاّ التطبيق العملي للإسلام وأنّه ليس هناك إلا التصوّف الإسلامي[12].

ظهور التصوّف كطرق ومدارس:

يرجع أصل الطرق الصوفية إلى عهد رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلّم عندما كان يخص كل من الصحابة بورد يتّفق مع درجته وأحواله، فمثلا:

- الصحابيّ علي بن أبي طالب فقد أخذ من النبي الذكر بالنفي والإثبات (وهو لا إله إلاّ الله).

- أما أبو بكر الصدّيق فأخذ عنه الذكر بالاسم المفرد (الله) ثمّ أخذ عنهما من التابعين هذه الأذكار وسميت الطرائقتين بالبكرية نسبة لأبي بكر والعلوية نسبة لعلي بن أبي طالب.

إنّ المصطلحات بشكل عام كلمات مستعملة أصلا قبل التواضع على اصطلاحها، ثم إنها استعملت مصطلحا للدلالة على معنى معين فصارت دليلا وعلامة لتلك الفكرة لتميزها عن غيرها، وفي عادة المصطلحين أنهم ما وضعوا مصطلحاتهم إلا لمنع التداخل غيرها بها.

واستنتاجا لما سبق؛ لقد قيل في اشتقاق لفظ الصوفية أو التصوّف الكثير ودار حول اشتقاق اللّفظ الكثير من الجدل، فقال البعض أن التصوّف من الصوفة لأنّ الصوفي مع خالقه كالصوفة المطروحة لا فعل ولا تدبير لأنّه مستسلم لله في حركاته وسكناته، قال تعالى: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[13].

والبعض قال إنه الصّفاء المحمود وضدّه الكدورة المذمومة، وآخرون قالوا أنّ الصوفية من لبس الصوف؛ وهنا ذكر كلام ابن الجوزي: كان الزهد في بواطن القلوب فصار في ظواهر الثياب، كان الزهد حرقة، فصار اليوم خرقة وَيْحك صوف قلبك لا جسمك وأصلح نيتك لا مرقعتك، إن أهل هذا الطريق أي التصوّف أشهر وأسمى من أن يحتاج في التعرف عليهم إلى لفظ مشتق أو قياس على هذا اللّفظ، فالسالك لا يهمه الاسم الذي يطلق عليه مهما كان، طالما أنه مع الله وإلى الله في عمله وقصده، وأن مبتغاه أن يكون مع خالقه بلا غرض ولا مطلب ولا تحقيق شهوة دنيوية اللّهم إلا علاقة الشكر

الدائم الّذي لا ينقطع والشّعور بالقصور والشعور بالقرب بعد كدورة البعد.

وعليه فإن أجمل وصف يمكن أن يطلق على الصوفيين هو المسلمين وهو الاسم الذي اختاره الله في قوله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[14].

فالتصوّف علم يعرف به أحوال النّفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها وتحليتها بالاتّصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه.

وثمرته: تهذيب القلوب ومعرفة علاّم الغيوب ذوقا ووجدانا، والنجاة في الآخرة والفوز برضا الله تعالى، ونيل السعادة الأبدية وتنوير القلب وصفاؤه؛ بحيث ينكشف له أمور جليلة ويشهد أحوال عجيبة ويعاين ما عميت عنه بصيرة غيره[15].

أصول التصوّف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية وإتباع السنة في الأقوال والأفعال والإعراض عن الخلق في الإقبال

والإدبار والرضى عن الله في القليل والكثير والرجوع إلى الله في السرّاء والضرّاء.

ومن خلال المفهوم اللّغوي والاصطلاحي يمكن أن نشير إلى المقصود بالمصطلح التصوف ومصطلح الطريقة الصوفية هو كالآتي:

التصوّف والصوفية، طريقة تقوم على مجموعة من الآراء والمبادئ قوامها أن المعرفة اتصال مباشر بين الروح والمطلق - الله دون الاستعانة بالعقل العملي- أو نقول: مذهب ديني أو روحي يرمي إلى اتحاد الإنسان بخالقه عن طريق التأمل والتوحد والفناء، والعمل بمدلولها يؤدّي بالإنسان إلى درجة الكمال ويطلق عليه التصوّف الإسلامي كون هذا الأخير في مرجعيته الفكرية والعملية ينطلق من السنة والكتاب.

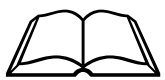

الهوامش:

[1])- سورة الجن، الآية: .16

[2])- سورة الجن، الآية: 11.

3)- ينظر: المعجم العربي الأساسي: جماعة من كبار اللّغويين العرب، جامعة الدول العربية، لاروس، 1989، ص.792

4)- ينظر: الطريقة العلية القادرية الكسنْزانية، محمد الكسنْزان، ص78-.79

5)- جزء من الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دار الإحياء، التراث العربي، بيروت، ج1، ص.39

6)- ينظر: الانتصار لطريق الصوفية المحدّث محمد صدّيق الغماري، ص.6

7)- حقائق عن التصوّف: عبد القادر عيسى، دار العرفان، سوريا، ط11، ص25.

8)- ينظر: تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مزدولة: البيروني، عالم الكتب، مصر، ط2، 1983، ص25.

9)- الصوفية الوجه الآخر: غازي محمد جميل، إعداد عبد المنعم الجداوي، لقاء صحفي، ص.47

10)- الرسالة القشيرية: ابو القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمد بن شريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص.7

11)- قواعد التصوّف: أحمد مرزوق، علّق عليه محمد زهري النجّار، المكتبة الأزهرية، مصر، القاعدة 13، ص6، ص.2

12)- ينظر: حقائق عن التصوّف: المرجع السابق، ص.30

13)- سورة النساء، الآية: .65

14)- سورة فصلت، الآية: .33

15)- رسالة مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوّف: الإمام النووي، ص20.

التصوف
بين الأصالة والاقتباس عند فقهاء المالكية
ابن جزي الغرناطي أنموذجا

الدكتور : خيرالدين سيب
جامعة تلمسان

الحمد لله الذي بنعمته تتّم الصالحات، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.أمّا بعد:

فقد تواتر النقل عن أغلب علماء المالكية في إثبات الصلة بين السلوك والعقيدة من جهة وبين السلوك والفقه من جهة أخرى، مما يبين عدم صحة التعميم الذي ذكره العلامة المربي سعيد حوّى –رحمه الله- في قوله» افتح الآن كتاب التوحيد وكتاب فقه فإنك لا تجد أي إشارة لقضية القلب وعلومه...لا تجد في هذه الكتب (العقيدة والفقه)أي تفصيل في باب القلب والنفس والشعور» [1].

ويدل ما تواتر النقل به عن علماء المالكية على هيمنة النظرية الوظيفية التطبيقية للدين الإسلامي على كثير من